

أبو العتاهية أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان شاعر كوفي ولد بالكوفة ونشأ بها . وهو مولى من الموالى ، ويرجح الباحثون أنه من الأنباط الذين كانوا يعيشون حول الحيرة . تفتحت عيناه على الحياة في الوقت الذي كانت الدولة الأموية تغمسن في عينيها ، إذ ولد في سنة مائة وثلاثين قبيل سقوط الدولة الأموية بعامين وشهدت طفولته تلك الحياة السياسية المضطربة التي عاش فيها المجتمع الإسلامي عقب الانقلاب العباسي ، وشهد بعينيه الصغيرتين رؤوساً تتطاير وأشلاء تتناثر وأرواحاً تزهق ودماء تسيل ، وانطبع هذه الصورة القائمة السوداء في نفسه منذ هذا الوقت المبكر من حياته . وهي صورة حجبتها الحياة عنه فترة من الزمن حين كان العود ريان الشباب مخضرة الإهاب ، ولكنها عادت فظهرت قوية واضحة حين أخذت حياته تحدن نحو الغروب في هذه الفترة المبكرة من حياته انطبع في نفسه صورة قائمة المصير الإنساني في الحياة ، ذلك المصير الذي شغله فترة طويلة ، وملأ نفسه بالتشاؤم منذ أن أخذ ينحاز عن الجانب المشرق من الحياة إلى الجانب المظلم في عزلمه بعيداً عن موكب الحياة والأحياء مضى يضرب في شباب الحياة اللاحية . ثم في صدر شبابه من بتجربة نفسية كان لها أعمق الأثر في حياته وفنه بعد ذلك، فقد تعلق قلبه بحب فتاة نائحة اسمها سعدى، ومضى يضرب معها في شباب الموت والنواح والسود ، واصطبغت نفسه في هذا الوقت المبكر من حياته بالتشاؤم الذي كان يثيره في نفسه حديث الموت الذي كان يتردد على شفتي هذه النائحة الحسنة . ثم حيل بينه وبينها ، إذ وقف مواليها في وجهه وحالوا بينه وبين السعادة التي كان يظنها تتحقق له في جوارها . وصدام أبو العتاهية في أول تجربة عاطفية له ، واندفع في أثر هذه الصدمة نحو حياة لاهية متحلة يشارك فيها عصابات المجان الذين كانوا يملكون مدinetه . ومضى يسيم سرح اللهو حيث يسيمون ، ويغرق نفسه في كؤوس اللهو والحجون التي كانوا يغرقون فيها أنفسهم. وقضى فترة من شبابه يحيا حياة متحلة ماجنة يرافق فيها أباً تواص وأضرابه من أولئك الشعراء المجان الذين كانت تزخر بهم مدن العراق في ذلك الوقت . وكان أبو العتاهية في هذه الفترة من حياته يعمل جزاراً يصنع الجرار الخضر ويبيعها في الكوفة ، وفي هذه الحرفة رأى أبو العتاهية مرة ثانية صورة المصير الإنساني في الحياة ، فهذه الطينة البكر التي يأخذها بين يديه ليسوبيها جراراً متعددة الأشكال مختلفة الأحجام ، فيبعضها إلى قصور الأمراء حيث الفن والشراء والشرف، وبعضاً إلى أ��واخ الفقراء حيث الفقر والشقاء والشظف ، لكن المصير في الحالتين واحد ، إنه العودة إلى التراب الذي صنعت منه ليست هذه هي قصة الحياة ؟ من التراب خلق الإنسان ، ثم ألقى به في الحياة لتبلوه وتختبره ويتفاوت حظه ، فشقى وسعيد ، ولكن مصير الاثنين في النهاية واحد ، إنها العودة إلى التراب الذي خلق منه في هذه الفترة أخذ أبو العتاهية ينظم الشعر، وبدأ نجمه يلمع ، وأخذت ناشئة الأدب تسعى إليه لتأخذ عنه الشعر وترويه له. ويحدثنا الرواية أن هذه الناشئة كانت تقصد إليه حيث يصنع الجرار ويبيعها ، وأنها كانت تكتب شعره على ما يتناوله من جراره من قطع الحرف . ثم أراد أبو العتاهية أن يجرب حظه في الحياة شاعراً ، ولمعت أمام عينيه بغداد التي كانت تتألق بأضوائها ، فتجذب إليها العناصر الطامحة من أرجاء المجتمع الإسلامي كلها . وشد أبو العتاهية رحاله إلى بغداد . وكان هذا - في أغلب الظن - في أوائل خلافة المهدى . وقبل أن يتصل أبوه العتاهية بالمهدى، وفي أثناء تلك الفترة التي قضتها في بغداد قبل أن يؤذن له بالمثول . مين بدئ الخليفة ، مرت به تجربة عاطفية أخرى، فقد أحبت عتبة جارية الخليفة حباً ملا عليه كل أرجاء نفسه ، حتى لتوشك أن تكون هي الفتاة الأساسية في حياته ، أو تلك الدمية الجميلة التي يصفها بأن الله لما رأى جمالها خدا بقدرته حور الجنان على مثالها . ومضى أبو العتاهية يصرح بحبه لها في شعره ، ولم يتورع عن ذلك حتى في مدحه لل الخليفة نفسه، إذا كان يبدأ مدائحه فيه بالغزل فيها ، وكأنما كان يظن أنه سيهبها له ولكن الخليفة كان مفتوناً بها ، وقضى أبو العتاهية في السجن فترة من الزمن ثم أفرج عنه الشفاعة قام بها حال الخليفة وكان معجبًا به . وخرج أبو العتاهية من السجن يجر أذيال الخيبة العاطفية التي لحقته ، ويعاني من صدمة نفسية جديدة أعادت إلى نفسه ذكرى التجربة الأولى والصادمة المبكرة التي لحقته حين أحب سعدى النائحة . وقرر أبو العتاهية بعد هاتين الصدمتين أن يميت قلبه إلى الأبد ، بها إلى الخلفاء العباسيين . وتحول أبو العتاهية إلى شاعر رسمي يؤدى واجبه التقليدي للقصر العباسي في بغداد، فاتصل بالمهدى ثم بابنه الهادى من بعده . ثم بابنه الرشيد بعد الهادى ، وتوطدت صلة بالرشيد حتى أصبح شاعره الرسمي لا يفارقه في سفر ولا في إقامة . وأغدق الرشيد عليه الجوائز والعطاب ، وبدأت الدنيا تقبل عليه ، وبدأت الحياة تبسط له ذراعيها إلى أبعد حدودهما ، وبدأ الذهب يسيل من أصابعه ، ولكن كل هذا جاء بعد الغروب - لقد دع أبو العتاهية شبابه محملاً بذكريات حزينة واخذ يستقبل شيخوخته التي لا تصلح لحب ولا للهو ولا لمتعة. وقرر أن ينصرف عن منع الدنيا وملذاتها ، وأن يعتزل الناس ، ويفرض على نفسه حياة تقوم على الزهد والتشفف. ومضى أبو العتاهية في زهذه يجاهد نفسه مجاهدة عنيفة ، إذ فرض على نفسه الحج كل عام ، كما فرض عليها اعتزال الناس والميل إلى الوحدة ومقارقة مجالس اللهو والشعر والغزل ، كما كان يفرض على نفسه أحياناً أن يصوم عن الكلام ،

ومضى في ثيابه الصوفية الخشنة يمارس هذه الرياضات الروحية حتى ودع الحياة . وفي بداية زهده مرت به محنـة من تلك المحنـة التي كان يمتحن بها ، فقد أمر الرشيد بأن يزج به في السجن والأسباب الحقيقة لهذا السجن ليست واضحة تماما ، فالرواية يذكرون أن الرشيد سجنـه لأنـه طلب إليه أن يقول شـعراً في الغـزل ولكـنه رـفض . وصمـم الشـاعر على امـتناعـه ، وأـقـسم الخليـفة عليه ليقولـن شـعراً في الغـزل أو لـيسـجـنـ ، وأـقـسم الشـاعـر ليـصـوـمـ عنـ الـكـلـامـ كـلـهـ إـلاـ عـنـ قـرـاءـةـ الـقـرـآنـ وـذـكـرـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللـهـ مـحـمـدـ رـسـولـ اللـهـ لـمـدـةـ سـنـةـ ، وـثـارـتـ ثـائـرـةـ الرـشـيدـ وـأـلـقـيـ بهـ فـيـ السـجـنـ ثـمـ تـخـالـفـ الـرـوـاـيـاتـ بـعـدـ ذـلـكـ حـولـ المـدـةـ التـيـ قـضـاـهـاـ فـيـ السـجـنـ ، وـحـولـ خـروـجـهـ مـنـهـ وـالـأـسـبـابـ التـيـ جـعـلـتـ الـخـلـيـفـةـ يـغـفـلـ عـنـهـ ، وـأـنـهـ أـخـذـ يـحـتـالـ حـتـىـ يـتـحلـ مـنـ قـسـمـهـ . وـلـكـنـ الـذـيـ يـبـدوـ لـيـ أـنـ هـذـاـ السـبـبـ الـذـيـ يـذـكـرـهـ الـرـوـاـةـ لـيـسـ هوـ السـبـبـ الـحـقـيقـيـ لـسـجـنـهـ ، لـأـنـ شـعـراءـ الـغـزلـ فـيـ عـصـرـ الرـشـيدـ كـانـواـ كـثـيرـينـ ، وـمـنـ الـمـمـكـنـ أـنـ يـطـلـبـ إـلـىـ أـىـ وـاحـدـ مـنـهـ أـنـ يـنـظـمـ لـهـ مـاـ يـشـاءـ مـنـ غـزـلـ ، وـالـذـيـ يـبـدوـ لـيـ أـنـ الـخـلـيـفـةـ كـانـ يـحـاـوـلـ أـنـ يـبـعـدـ أـبـاـ الـعـنـاهـيـةـ عـنـ الـأـوـسـاطـ الـشـعـبـيـةـ التـيـ كـانـ شـعـرهـ مـنـتـشـرـاـ بـيـنـهـاـ اـنـتـشـارـاـ وـاسـعـاـ حـتـىـ لـاـ تـأـثـرـ بـأـرـائـهـ التـيـ كـانـ يـرـدـدـهـاـ كـثـيرـاـ حـولـ الـمـلـوـكـ وـهـوـانـ أـمـرـهـ بـعـدـ الـمـوـتـ ، وـتـسـاوـيـهـمـ فـيـ النـهاـيـةـ بـالـسـوقـةـ ، وـكـانـ الرـشـيدـ كـانـ يـرـىـ فـيـهـاـ شـيـئـاـ يـقلـلـ مـنـ هـيـبـتـهـ فـيـ أـعـيـنـ النـاسـ وـمـنـزـلـتـهـ فـيـ نـفـوسـهـمـ ، وـمـنـ هـنـاـ كـنـتـ أـرـىـ أـنـ سـجـنـ أـبـيـ الـعـنـاهـيـةـ لـمـ يـكـنـ إـلـاـ صـورـ تـحـدـيـدـ إـلـقـامـةـ فـرـضـهـاـ الرـشـيدـ عـلـيـهـ ، حـتـىـ يـبـعـدـ بـهـ عـنـ الـشـعـبـ الـذـيـ كـانـ يـرـوـيـ شـعـرهـ وـيـتـغـنـيـ بـهـ فـيـ كـلـ مـكـانـ وـخـرـجـ أـبـوـ الـعـنـاهـيـةـ مـنـ السـجـنـ وـقـدـ أـلـىـ عـلـىـ نـفـسـهـ أـنـ يـعـتـزـلـ النـاسـ إـلـىـ الـأـبـدـ وـأـخـذـ يـجـنـحـ إـلـىـ الـوـحـدـةـ وـالـعـزـلـةـ ، وـأـرـسـلـ إـلـىـ الـخـلـيـفـةـ بـيـنـهـاـ يـعـلـنـ فـيـهـاـ أـنـ قـرـرـ اـعـتـزـالـ النـاسـ وـالـبـعـدـ عـنـهـمـ إـلـىـ الـأـبـدـ . وـظـلـ أـبـوـ الـعـنـاهـيـةـ طـوـالـ حـكـمـ الرـشـيدـ فـيـ عـزـلـهـ الـرـوـحـيـةـ التـيـ فـرـضـهـاـ عـلـىـ نـفـسـهـ ، حـتـىـ إـذـاـ مـاـمـاتـ الرـشـيدـ لـمـ يـرـثـهـ أـبـوـ الـعـنـاهـيـةـ ، وـإـنـماـ اـتـخـذـ مـنـ مـوـتـهـ مـوـضـوعـاـ لـلـعـظـةـ وـالـاعـتـبارـ ، فـهـذـاـ الـمـلـكـ الـجـيـارـ الـذـيـ كـانـ يـخـشـاـهـ النـاسـ قـدـ اـنـتـصـرـ عـلـيـهـ المـوـتـ فـيـ النـهاـيـةـ وـتـسـاوـيـ مـعـ سـائـرـ الـبـشـرـ . ثـمـ تـضـطـرـبـ الـأـمـرـوـںـ الـسـيـاسـيـةـ وـيـدـورـ الـصـرـاعـ السـيـاسـيـ بـيـنـ الـأـمـيـنـ وـالـمـأـمـونـ ، وـلـمـ يـتـصـلـ بـالـحـيـاةـ السـيـاسـيـةـ لـاـ فـيـ اـضـطـرـابـهـاـ وـلـاـ فـيـ اـسـتـقـرـارـهـاـ ، وـإـنـماـ هـوـ يـجـاهـدـ نـفـسـهـ مـجـاهـدـةـ عـنـيـفـةـ ، وـيـرـوـضـهـ رـياـضـةـ روـحـيـةـ عـمـيقـةـ ، أـمـاـ السـيـاسـةـ وـأـحـدـاثـهـ وـأـمـاـ الـحـيـاةـ وـالـصـرـاعـ فـيـهـاـ إـنـهـاـ أـشـيـاءـ قـدـ نـفـضـ يـدـهـ مـنـهـاـ إـلـىـ الـأـبـدـ . وـلـكـنـ مـنـ حـيـنـ كـانـ يـخـرـجـ إـلـىـ مـعـتـرـكـ الـحـيـاةـ لـيـشـهـدـ اـصـطـرـاعـ النـاسـ وـهـمـ غـافـلـونـ عـنـ الـمـصـيـرـ الـذـيـ يـنـتـظـرـهـ ، وـلـيـسـتـخـلـصـ مـنـ ذـلـكـ مـعـانـيـ يـصـوـرـهـاـ فـيـ شـعـرهـ الـذـيـ بـلـغـ مـنـ الـذـيـوـعـ وـالـاـنـتـشـارـ درـجـةـ كـبـيرـةـ ، فـنـاشـئـةـ الـأـدـبـ وـالـمـتـأـدـبـونـ يـفـدـونـ عـلـيـهـ فـيـ طـلـبـ شـعـرهـ ، وـالـرـوـاـةـ يـسـجـلـونـهـ وـيـحـفـظـونـهـ ، وـالـخـلـيـفـةـ نـفـسـهـ يـسـعـيـ إـلـيـهـ لـيـنـشـدـهـ مـنـ شـعـرهـ فـيـ الـزـهـدـ وـالـمـوـتـ وـالـحـدـيـثـ عـنـ الـمـصـيـرـ ، فـيـعـجـبـ ١٥:٢٢ مـاـيـوـ ٢٠٢٤ اـسـ اـسـ مـكـافـاتـ سـخـيـةـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـهـ لـاـ يـمـدـحـهـ كـمـاـ يـفـعـلـ سـائـرـ الـشـعـراءـ ، وـذـلـكـ حـتـىـ يـضـمـنـ لـهـ أـنـ يـعـيـشـ حـيـاةـ هـادـئـةـ مـطـمـئـنـةـ لـاـ يـعـكـرـ عـلـيـهـ فـيـهـاـ صـفـوـ عـزـلـتـهـ الـرـوـحـيـةـ شـيـءـ مـنـ مشـكـلاتـ الـحـيـاةـ . وـظـلـ أـبـوـ الـعـنـاهـيـةـ يـنـشـدـ شـعـرهـ فـيـ الـمـصـيـرـ حـتـىـ أـدـرـكـهـ الـمـصـيـرـ الـذـيـ طـالـمـاـ رـدـدـهـ فـيـ شـعـرهـ فـيـ سـنـةـ يـخـتـلـفـ الـرـوـاـةـ حـولـهـ ، وـلـكـنـهاـ عـلـىـ كـلـ حـالـ تـقـعـ فـيـ مـسـتـهـلـ الـقـرـنـ الـثـالـثـ (٢٠٥ - ٢١٠ - ٢١١ - ٢٠٩ - ٢١٣) ، وـلـكـنـ السـنـةـ التـيـ يـذـكـرـهـاـ اـبـنـهـ وـهـيـ ٢١٠ـ الـسـنـةـ التـيـ رـجـحتـهـ تـارـيـخـاـ لـوـفـاتـهـ فـيـ : حـيـاةـ الـشـعـرـ فـيـ الـكـوـفـةـ ، ..(٢)ـ وـالـفـكـرـةـ الـأـسـاسـيـةـ فـيـ شـعـرـ أـبـيـ الـعـنـاهـيـةـ الـزـهـدـيـهـ هـيـ فـكـرـةـ الـمـصـيـرـ : مـصـيـرـ الـإـنـسـانـ فـيـ الـحـيـاةـ وـمـصـيـرـهـ بـعـدـ الـمـوـتـ ، وـتـرـرـدـ هـذـهـ فـكـرـةـ فـيـ شـعـرهـ بـصـورـةـ وـاسـعـةـ ، وـهـوـ مـشـغـولـ بـهـاـ شـغـلاـ كـبـيرـاـ يـعـبرـ عـنـهـاـ فـيـ صـورـ شـتـيـ وـبـأـسـالـيـبـ مـتـعـدـدـةـ ، يـطـوـفـ حـولـهـ حـيـنـاـ وـيـتـغـلـلـ فـيـ أـعـماـقـهـ حـيـنـاـ آخـرـ ، وـيـعـرـضـ عـلـيـنـاـ مـنـهـاـ نـمـاذـجـ مـخـتـلـفـةـ ، تـمـاماـ كـمـاـ كـانـ يـفـعـلـ فـيـ سـالـفـ أـيـامـهـ حـيـنـ كـانـ يـسـوـىـ الطـيـةـ الـخـضـرـاءـ جـرـارـاـ مـخـتـلـفـةـ الـأـحـجـامـ وـالـأـشـكـالـ ، وـلـكـنـ جـرـارـهـ الـفـنـيـةـ لـمـ تـكـنـ خـضـرـاـ كـتـلـ الـجـرـارـ الـتـيـ كـانـ يـسـوـيـهـاـ ، وـإـنـماـ كـانـتـ جـرـارـاـ سـوـدـاـ قـائـمـةـ تـبـعـثـ عـلـىـ التـشـاؤـمـ ، وـتـتـيـرـ فـيـ النـفـسـ الـحـزـنـ وـالـانـقـبـاـضـ . وـيـوـشكـ أـبـوـ الـعـنـاهـيـةـ أـنـ يـكـونـ أـهـمـ شـاعـرـ عـرـبـيـ شـغـلـتـهـ مـشـكـلـةـ الـمـصـيـرـ ، إـلـاـ إـذـاـ اـسـتـشـنـيـنـاـ أـبـاـ الـعـلـاءـ الـذـيـ أـلـحـتـ عـلـيـهـ هـذـهـ الـمـشـكـلـةـ أـيـضاـ وـشـغـلـتـهـ ، وـاحـتـلـتـ قـسـماـ كـبـيرـاـ مـنـ شـعـرهـ وـلـكـنـهـ تـفـكـرـ دـيـنـيـ يـخـتـفـيـ مـنـهـ الشـكـ وـالـحـيـرةـ لـيـظـهـرـ إـلـيـهـ الـإـيمـانـ وـالـيـقـيـنـ . فـالـعـقـلـ الـفـلـسـفـيـ الـذـيـ ظـهـرـ عـنـدـ أـبـيـ الـعـلـاءـ وـسـيـطـرـ عـلـيـهـ وـأـثـرـ فـيـ شـعـرهـ يـخـتـفـيـ عـنـدـ أـبـيـ الـعـنـاهـيـةـ لـتـحـلـ مـحـلـهـ الـعـاطـفـةـ الـدـيـنـيـةـ وـمـنـ هـنـاـ كـانـ حـدـيـثـ أـبـيـ الـعـنـاهـيـةـ عـنـ مـشـكـلـةـ الـمـصـيـرـ يـخـاطـبـ الـوـجـدانـ الـإـنـسـانـيـ أـكـثـرـ مـاـ يـخـاطـبـ الـعـقـلـ الـفـلـسـفـيـ – إـنـهـ فـيـ حـقـيـقـةـ أـمـرـهـ لـيـسـ أـكـثـرـ مـنـ هـذـهـ روـحـيـةـ ، يـنـبـهـ يـاـهـاـ أـلـئـكـ الـغـافـلـينـ الـذـيـنـ اـطـمـأـنـواـ إـلـىـ حـيـاتـهـ الـدـنـيـاـ ، وـغـفـلـوـاـ فـيـهـاـ عـنـ الـمـصـيـرـ الـذـيـ يـنـتـظـرـهـمـ . وـلـهـذـاـ تـكـثـرـ فـيـ شـعـرهـ تـلـكـ الـصـورـ الـتـيـ تـتـيـرـ تـشـاؤـمـ وـالـانـقـبـاـضـ وـالـحـزـنـ فـيـ نـفـوسـ النـاسـ ، وـذـلـكـ لـأـنـهـ كـانـ يـرـىـ فـيـ إـثـارـةـ هـذـهـ الـمـشـاعـرـ الـوـسـيـلـةـ الـفـعـالـةـ لـتـبـيـهـ هـؤـلـاءـ الـغـافـلـينـ إـلـىـ الـمـصـيـرـ الـذـيـ يـنـتـظـرـهـمـ وـالـتـيـ سـتـفـارـقـهـ فـيـ يـوـمـ مـنـ الـأـيـامـ فـيـ رـحـلـةـ طـوـيـلـةـ رـهـيـبـةـ تـنـتـهـيـ بـنـاـ إـلـىـ الـجـنـةـ أـوـ إـلـىـ الـنـارـ ؟ـ هـذـهـ هـيـ الـمـشاـكـلـ الـتـيـ شـغـلـتـ ذـهـنـ أـبـيـ الـعـنـاهـيـةـ وـمـلـأـتـ عـلـيـهـ تـفـكـرـهـ ، وـمـضـيـ يـصـوـغـهـاـ فـيـ شـعـرهـ أـلـوـانـاـ مـخـلـفـةـ ، فـالـحـيـاةـ عـنـدـهـ – كـمـاـ هـيـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ – دـارـ الـمـتـاعـ وـالـزـوـالـ وـالـغـرـورـ ، وـحـيـنـاـ كـالـضـيـابـ لـاـ تـلـيـثـ أـشـعـةـ الـشـمـسـ أـنـ تـبـدـدـهـ ، أـرـاكـ وـإـنـ طـلـبـتـ بـكـلـ وـجـهـ أـوـ الـأـمـسـ الـذـيـ وـلـيـ ذـهـابـاـ لـوـ تـرـىـ الـدـنـيـاـ بـعـيـنـيـ بـصـيـرـ إـنـمـاـ الـدـنـيـاـ تـحـاـكـيـ السـرـايـاـ كـحـلـ النـوـمـ أـوـ ظـلـ السـحـابـ

وليس يعود ألم الشراب إنما الدنيا كفى تولى وكما عاينت فيه الضبابا مثل لمع الآل في الأرض القفار إنما الدنيا غرور كلها والدنيا - في حقيقة أمرها ، وكما يجب أن يتمثلها الإنسان حتى ينجو منها ويفوز بالسعادة في الآخرة – ليست دار إقامة أو استقرار، قلعة ، تقتل الإنسان مهما يطل عمره فيها : ألم تر أن المرء في دار قلعة إلى غيرها، والموت فيها سببه وإن طال تعميري عليها وأزمنت أيها نفس لا تستوطنى دار قلعة ولكن خذى بالزاد قبل ارتحالك إنها ليست أكثر من معبر ينتقل عليه الإنسان من شط الحياة الفانية إلى شط الآخرة الساقية ، أو هي مناخ القوم مسافرين ينزلون به ليستريحوا من رحلة شاقة مجده ، ثم دام إن داراً نحن فيها لداركم وقد حلها من أناس فهم الركب أصابوا مناخاً ليس فيها المقيم قرار